قرود البشر

درجنا على أن نعتبر القرد متعة وتسلية ؛ يسر فيه المرء حين يقفز ، وحين يقعى ، وحين يقلد ، وأصبح المقلد الأول فى عرفنا ؛ بل لا يكاد المدرس يسأل صغاره عن أى حيوان اشتهر بالتقليد حتى يجيبه الصغار : إنه القرد .

هكذا عرف العالم القديم القرد . . . ولكن القرن العشرين أبا العجائب والغرائب ؛ والذى حطم كثيراً من النظريات والأقوال المسلم بها قديماً ؛ أبى إلا أن يداعب الناس ويخرج لهم ما يقلب ما عرفوه عن القردة منذ الأزل ؛ فجعل طائفة من البشر هى القردة ، وجعلها تقلد فتجيد التقليد ؛ بل أوصلها إلى أكثر من هذا فوضع فى تقليدها متعة تسر لها النفوس وتضحك منها القلوب وإن صاحب هذه المتعة شىء من الألم والمرارة ؛ لشعور الإنسان بأن أمامه مسخاً من البشر ! ! .

قال فلان : إن هذا الرجل فيه من العيوب كذا وكذا وهو يريد حاجة فى نفسه فلا يكاد يسمعه قرد حتى يركض هنا وهناك ، طاعناً بالرجل منحياً بالذم عليه ، جاعلا هذا الرأى من بنات فكره ، بل ربما بلغت به حماسته حداً يفوق به ملقنه الأول ، وربما رأته قردة أخرى فأعجبتها الحماسة وبلغت منها بلاغة القرود مبلغها فصدرته للمجلس ورأت فيه رأياً جميلا ! ! .

وقيل عن فلان إنه ثائر فى سبيل الحق وقد فعل كيت وكيت فلا تلبث القردة أن تنصت آذانها وتبحث عن حق تطالب به وإذا أعجزها هذا خنقت من أى باطل حقاً ثم تهددت وتوعدت فكتبت وخطبت ونظمت ونثرت فإذا طلب منها الشرح أعياها المنطق وإذا ظن فيها الثبات تخلفت وتراجعت .

وذاك شاب عرف فيه معارضة مبدأ ودعوة لمبدأ سمعت به القردة فشدت إليه الرحال ثم رأت منه ، وأصغت إليه وخرجت بعد ذلك للناس فإذا عليها سماؤه وشمائله وحركاته وسكناته ؛ تتلفظ ألفاظه ، وتمسك لوازمه فيحار المرء حين يكون ذا صلة سابقة بأحدها كيف وصلت بها عبقرية التقليد إلى حد الإعجاز ! ! .

ويأتى ظرف تشتط فيه الألسن ، وتتعكر الأمزجة وتقال فى الناس الأقوال المقذعة ؛ فتشتط القردة فى التقليد وتتشبث بالمحاكاة . . . ثم تعود المياه إلى مجاريها ، فتصفو النفوس للنفوس ، وتخلص القلوب للقلوب ، وتزول الخصومات ، فيرتج حينئذ على القردة ويعوزها الزمن لتهضم الوضع الجديد فتظهر بمظهر لا تحسد عليه لأن الانطباع غير التطبع ، والاندفاع الطبيعى غير التعمل التقليدى .

وقد تسمع القردة شخصاً ينطق هذا النطق أو ذاك . . يتكلم السورية أو العراقية فيروقها منطقه وتعمل جاهدة على تقليده فلا يأتى زمن قصير عليها حتى تكون لغتها لغته ولهجتها لهجته . . . ويومها تخرج للناس طاووسية المشية تترنح ترنح ربات الحجال ، فإذا كلمتها أجابتك بلغتها الجديدة (١) متباهية متفاخرة ؛ فتقول سبحان الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم وتجعل كلمة الإنسان هنا من باب المجاز ! ! .

ويجلس قرد فى مجلس أهل العلم والأدب فيسمع منهم ويحاول أن يقول لهم لأنه حائر فى التقليد بين متحدث ومستمع ثم لا يلبث أن يعيد ما قالوه ، ويجادل به ، فاذا حمى وطيس المماراة قعدت به هجنته ، ونضب معينه ؛ فجحظت عيناه وقعقعت ترقوته ، واعتراه الرجفان . . . فاذا عيب عليه فى هذا قال إنه رجفان العبقرية وربما كان سارقاً حتى لهذه اللفظة ! ! !

وقد يلوك لسان القرد سمعة فلان من الناس فاذا استقبل عدوه بالأمس هش له وبش فى وجهه لأنه يقلد دهاة الرجال فى هذا . . . أو ليس الدهاة يظهرون خلاف ما يبطنون ؟ !

ويأتى يوم يستقبل فيه عدوه بوجه كبطن الكرش ارقش تعلوه الدمامة فلا يرد تحية ؟ ولا يدفع واجب السلام لأنه يقلد الشجعان . . . . والشجاع يجب أن يكون صريحاً قوى العارضة ! ! !

ويا ليت قردة البشر لما قلدت أرادت الخير وحده ولكنها حين تقلد فانما تقلد غراماً فى التقليد دون أن تنظر إلى الخير أو الشر ؛ بل ربما ما كانت لتدرى الخير من الشر لأنها ذات عبقرية فى التقليد وحسبها هذا إثباتاً للتفوق والامتياز ! ! !

أما إذا طلب منها أن تعلو وتعود إلى انسانيتها فى أحسن تقويم احتجت بقوله تعالى : « ثم رددناه : أسفل سافلين »

« الكويت » عبد الله أحمد حسين

(١) لا نعرف إلا لغة عربية واحدة فى مختلف البلاد العربية ، وربما يقصد الكاتب اللهجة فقط .